الشعر الجزائري الناهض في مواكبة قضايا الأمة

(شعر محمد الهادي السنوسي أنموذجا)

د. عيسى مدور

كلية الآداب واللغات

جامعة باتنة

ملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تناقش إشكالية العلاقة بين الواقع الاجتماعي ورسالة النص الشعري، والمناقشة هنا مؤيدة بالجدل القائم بين الشعر الناهض وعلاقته بقضايا الأمة؛ إذ يُعد ذلك مطلبا ملحا يحاول أصحابه الإقناع وإقامة الحجة عن طريق الإفهام في لطف، الشيء الذي يحقق ويؤكد مسؤولية الأديب في مواكبة قضايا المجتمع باعتباره مشاركا فيه، وباعتباره متأثرا به ومؤثرا فيه...

Résumé :

Cette étude tente d'examiner la problématique du rapport entre la réalité Sociale et le message du texte poétique. La discussion est fondée sur la controverse liée à la poésie dans ses rapports avec les préoccupations de la nation.

Il y a là une exigence impérative dont les défenseurs tentent, grâce à la persuasion et à l'argumentation, et par le biais du dialogue serein, d'affirmer la responsabilité de l'écrivain dans sa volonté de refléter les aspirations de la société, en tant qu'acteur et producteur d'une historicité qui le reproduit également.

مقدمة:

يعد النتاج الشعري مصدرا من مصادر التاريخ الإنساني؛ لذا حظي بمكانة مرموقة لدى الإنسان قديما وحديثا، فهو لا يقل أهمية عن الفنون الأخرى في أداء دوره الرسالي المنوط به في بناء المجتمعات، لذلك ليس بدعا إن وجدناه الوسيلة الفاعلة التي اعتمدها الشعراء في تبليغ دعوتهم، والقوة المؤثرة المعتمدة لبلوغ مقاصدهم، ثم هو إلى اليوم يعد ضرورة من ضرورات الحياة، وسلاحا معنويا لا يمكن الاستغناء عنه في مواكبة قضايا الأمة. لكن نلحظ أن هناك نصوصا شعرية تحقق هدفها في استجابة المتلقي لها، وأخرى لا تحقق لديه أدنى استجابة، وربما من بين الدوافع إلى اكتشاف ذلك التفاوت فيما بين النصوص ومعرفة درجة الاستجابة لها تظهر في أن الشاعر لا يكفي أن ينافح عن قضاياه الوطنية والاجتماعية فحسب، وإنما ننتظر منه مع ذلك كله أن يوفر الإثارة الأدبية والإجادة الفنية التي تجلب اهتمامنا وتحقق استجابتنا لها؛ أي يعيش لرسالة فنية واجتماعية في آن واحد، وهذا يعد المحرك الأساس للاهتمام بقراءة النص قراءة جادة تصدر أحكاما تزيد من قيمته التفاعلية، وإشراكنا في رؤيته الصائبة والعميقة في مواكبة قضايا الأمة التي ينتمي إليها.

إشكالية الدراسة: إن الشعر الجزائري الحديث وبخاصة الناهض منه يعد خطابا أدبيا مفتوحا على العديد من القراءات التي سعت ومازالت إلى فك شفراته الدلالية والنقدية من خلال التعمق في مستوى معانيه ومقاصده، وتأسيس نظرة حول ماهيته ووظيفته في بناء علاقات جادة مع الواقع الاجتماعي، وفي هذا الإطار جاءت بنية العنوان مشكلة من (الشعر الجزائري الناهض في مواكبة قضايا الأمة)، وبذلك تحددت

الإشكالية في: ما الشعر الجزائري الناهض؟ وما اتجاهاته ومؤثراته؟ وما مدى مواكبته لقضايا الأمة؟

الهدف من الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى المحاولة للإجابة عن الكم التساؤلي الدائر بين عدد غير قليل من الذين يتحدثون عن دور الشعر وما يقدمه من اسهامات فاعلة في المجتمع، وعن مدى قدرته في مواكبة قضاياه. كيف لا وهو يعد من أكثر فنون القول هيمنة في تاريخ الأدب العربي بما يمثله من مشاركة تفاعلية بينه وبين البيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها، بل هو جزء منها، وما اللغة التي جُسد بها المنجز الأدبي وطبعته إلا مرآة تعكس ما يدور في المجتمع من أحداث وتفاعلات يحاول تكريسها أو تبريرها أو إقناع متلقيها قصد تحقيق المصلحة العامة، وهذا ما سنحاول التعرض له فيما نعتمده من شعر(محمد الهادي السنوسي) لإعطاء صورة واضحة عن مواكبته لقضايا الأمة.

أهمية الدراسة: تستمد هذه الدراسة أهميتها فيما تطرحه من مقاصد الشعر الجزائري الحديث في واقع المجتمع، وبخاصة الشعر الناهض الذي أعطى دفعا قويا في البناء والتغيير وذلك بمواكبته لقضايا الأمة المختلفة.

منهجية الدراسة: إن منهج الدراسة هنا مرهون بفعل القراءة التحليلية المسؤولة إلى حد ما عن إعطاء القيمة الأدبية للنص الأدبي أو سحبها عنه، وذلك ما سنحاول الوقوف عليه من أجل فهم أكثر في قراءة النصوص، مع ترك المجال مفتوحا حول مضامين هذه النصوص وقيمها الجمالية بغاية تحصيل مردودية معرفية أكبر، وبهذا تكون قد وضحت العلاقة بين رسالية النص الشعري التي تعد نسقا داخله باعتبارها

مهيمنة على لغة النص وعلى أنظمته الدالة، وبين واقع معاش عبرت عنه أديبة النص بإمتاع جمالي مؤثر...

1- مفهوم الشعر الجزائري الناهض:

قبل أن نتحدث عن مفهوم الشعر الجزائري الناهض، نود أن نلقي نظرة سريعة عن الحياة الثقافية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، لأنها كانت المؤثر الرئيس في مختلف جوانب الحياة العامة في الجزائر، وما الحياة الأدبية إلا جزء منها فقد أصابها ما أصاب الحيوات الأخرى من تأثير، ويظهر ذلك بوضوح في الشعر الجزائري الحديث ...

فالحياة الثقافية في الجزائر كان حالها حال ثقافة الأمم التي تعرضت للغزو وبخاصة الثقافي منه الذي يعد من أبشع صور الاستعمار الحديث لما يحمله من مقاصد تستهدف أهم مقوم من مقومات الشعوب المستضعفة، وهذا ما يرمي إليه الغزو الثقافي بتنوع أساليبه وتعدد مجالاته ومظاهره ، وبالتالي كان من الطبيعي أن تنحصر الثقافة ويتراجع التعليم في الجزائر« فإذا المثقفون الجزائريون بين فار بثقافته أو مهاجر بها، ومقيم بالجزائر ولكن أي إقامة!؟ إقامة في بطون الأودية السحيقة، أو في أعماق البوادي النائية، أو لواذ بقمم الجبال...»[1]،وهذا قد أحدث ارتباكا فضيعا في الحياة الثقافية أدى إلى إطفاء نورها، وابتليت بألوان من البلاء، فالمدارس الحرة التي تبنى تتعرض للمضايقة والإغلاق، والعلماء المصلحون يمنعون من التعليم

[1]- عبد الملك مرتاض، **فنون النثر الأدبي في الجزائر** (1931- 1954)، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، 1983)، ص: 33.

ويتعرضون للعقوبة والتغريم، أما الصحف لا تكاد تظهر حتى تتوارى بسبب البغض والتنكر والاضطهاد من قبل الإدارة الاستعمارية.

فمثل هذه الأوضاع المضطربة التي فرضت على الشعب الجزائري قد أثرت سلبا في حياته الثقافية مما سبب له تراجعا في جميع المجالات، ونخص هنا بالذكر واقع الشعر الجزائري الذي لم يسلم هو الآخر من الضعف والانحطاط لأنه كان نتيجة حتمية لما كانت تعانيه الحياة الثقافية في الجزائر من اضطهاد رهيب وتجفيف لمنابع العلم، وخنق لحرية المثقف الجزائري« مما جعل أثر ذلك يظهر على جيل الشباب المثقف الذي كان الاعتماد عليهم في بعث الأدب العربي في الجزائر وإحيائه بعد ركود، فكان أن انصرفوا عنه انصرافا يكاد يكون كليا إلى الآداب الأجنبية والأدب الفرنسي منها على الخصوص»[1].

إزاء هذا الواقع المفروض لم يستطع الشعر أن يرقى إلى المستوى المطلوب، بل هبط وشاع فيه التقليد المتكلف، وقلت العناية به، وقد أشار محمد البشير الإبراهيمي إلى ما أصاب أشعار شعراء الجزائر في هذه الفترة قائلا:« وقد اطلعنا على أكثرها فإذا هي أخت الأشعار الملحونة الرائجة في السوق، لأنها منقطعة الصلة بالشعر في أعاريضه وأضربه، ومنقطعة الصلة بالعربية في ألفاظها ومعانيها، ومنقطعة الصلة بالخيال في تصرفه واختراعه...»[2]، وما زاد الأمر تعقيدا فيما أصاب الشعر من انحطاط تزمت بعض المنتسبين للدين ونظرتهم إليه بأنه من لهو الحديث ما ترتب عنه عزوف عن قول الشعر، ومن ثم كان من نتائج ذلك أن« كسد الشعر

1- محمد ناصر، **الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية** (1925-1975)، (لبنان بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، ص: 17.
2- الشهاب، (ج9، م10، أوت 1934م)، ص: 390.

وفقد محبيه والمهتمين به، فصارت حرفة الأدب بئس الاحتراف»[1]، وعلى الرغم من ذلك لم يكن باستطاعة هذا الواقع المفروض أن يحول دون استماتة المثقف الجزائري في الحفاظ على دينه الذي هو سر بقاء لغته، ولما تهيأت الأسباب ولاح في الأفق بريق النهضة الأدبية مع بداية القرن العشرين، تمثلها بعض شعراء الجزائر وأصابوا منها نصيبا لا بأس به مكنهم من قول الشعر الذي ظهرت فيه ملامح التطور في الشكل والمضمون إذا ما قيس بما سبقه، وهنا يمكننا القول أن هذا الشعر« أعاد الثقة في نفوس الجزائريين بأن هناك نهضة أدبية في البلاد تحاول البروز إلى السطح لتؤثر في الحياة الاجتماعية، وتوجه الفرد الجزائري توجيها صحيحا يعتز معه بلغته ودينه»[2].الأمر الذي جعل أشعار بعض الرواد تعكس جوانب من واقع الشعب الجزائري، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال أشعارهم التي تحمل بعض التحولات الفكرية والدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والأخذ بالأسباب من أجل التغيير نحو الأفضل، ومهما يكن من ضعف في مستوى شعر هذه الفترة إلا أنه استطاع أن يعبر عن طبيعة المرحلة، وهذا ما دل عليه قول سعد الله:« بأن الشعر مهما كان يبدو حالكا ضعيفا، فإنه يمثل تلك الفترة أصدق تمثيل»[3]، وهذه تعد الخطوة الأولى نحو مواكبة الشعر لقضايا الأمة، وقد تلتها خطوات أكبر وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى التي تمثل تحولا عميقا مس الجزائر في مختلف جوانب الحياة، ولعل أبرز ما تمخض عن ذلك تلك النهضة الأدبية الحديثة التي بدأت مع بداية الحركة الإصلاحية في

---

[1]- ينظر، صالح خرفي، **شعر المقاومة الجزائرية**، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، سنة 1979)، ص. 5-30.

[2]- محمد ناصر، **الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية** (1925-1975)، مرجع سابق، ص: 24.

[3]- أبو القاسم سعد الله، **دراسات في الأدب الجزائري الحديث**، (لبنان، بيروت: دار الآداب، سنة 1966، ص 30.

الجزائر سنة 1925، علما بأن الذين حملوا لواء النهضة الأدبية في الجزائر قد تخرجوا في المعاهد العربية بمصر، وتونس، وفي هذا يقول البشير الإبراهيمي:«حمل أولئك النفر من مصر ومن تونس إلى الجزائر قبسا خافتا من الأدب العربي، كان كافيا في تحريك القرائح والأذهان، وقارن ذلك أو سبقه بقليل وصول الآثار الأدبية الجديدة من شعراء الشرق المُجلين»[1].

ومن أهم الأعمال التي قامت بها هذه النخبة المثقفة أنها نشرت الصحف العربية، ومن أبرزها (جريدة المنتقد) سنة 1925م والتي كانت بمثابة النادي الثقافي الأدبي الذي يلتقي فيه المثقفون من كتاب وشعراء، وإليها يرجع الفضل في تشجيع الشعر الناهض الذي تحرر من تلك القيود المكبلة وانطلق نحو خدمة المجتمع ومواكبة قضاياه، وهذه تعد انطلاقة جادة تميز بها الشعر الجزائري الناهض في تلك الفترة، وفي ذلك يقول ابن باديس:«...الحقيقة التي يعلمها كل أحد، أن هذه الحركة الأدبية، ظهرت واضحة من يوم أن برزت جريدة (المنتقد)، فمن يوم ذاك عرفت الجزائر من أبنائها كتابا وشعراء ما كانت تعرفهم من قبل ...»[2].

من هنا يمكن القول أن الحداثة في الشعر الجزائري بمفهومها الصحيح مرتبطة ببداية الحركة الإصلاحية، وهذا عند كثير من دارسي تطور الحركة الأدبية في الجزائر؛ بمعنى أن الشعر الجزائري الناهض قد أصابه تطور ملموس وصحوة حقيقة في فهم وظيفته ودوره في الحياة، وبذلك استطاع أن يستجيب ويتفاعل مع الواقع

[1]- من مقدمة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي لكتاب أبى القاسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة، (مصر: دار المعارف، 1975)، ص: 08.
[2]- الشهاب، (ج1، م05، فيفري 1932)، ص: 53.

الاجتماعي ويواكب قضاياه، وهذا هو الدور الحقيقي للشعر الناهض في تلك الفترة من تاريخ الأدب العربي في الجزائر.

2-المؤثرات الأساسية في الشعر الجزائري الناهض:

المتفق عليه أن الشعر الجزائري الناهض ظهر بظهور الحركة الإصلاحية التي كانت السبب الرئيس في تطوره وفهم وظيفته في الحياة، فجاء استجابة لواقع سياسي واجتماعي مفروض، وكان هذا أمرا طبيعيا لأنه يعد الأداة المعتمدة في مواكبة قضايا الأمة، وهذا الشعر الناهض يمثل أكثر من اتجاه، ولكل اتجاه مؤثرات ساعدت على تقييمه والحكم له أو عليه، وهنا نحاول التركيز على الاتجاه التقليدي المحافظ لأنه وجد في الأوساط الأدبية الجزائرية معتنقون أكثر، ووجد من الشعراء والنقاد استجابة تلقائية أكبر، إضافة إلى ذلك « الظروف السياسية والثقافية، والاجتماعية، التي أحاطت بالشاعر الجزائري، تضافرت كلها على توجيه الحركة الشعرية إلى أن تتغلب عليه نزعة المحافظة والتقليد»[1]، وهذا الاتجاه له أتباعه والداعين إليه، وقد ظل قويا طوال فترة زمنية لا بأس بها، مما جعلنا نتساءل عن المؤثرات التي ساعدت على انتشاره واستمراره نذكر منها:

أ-التعلق بالثقافة السلفية

تبنت الحركة الإصلاحية في الجزائر الثقافة السلفية، وذلك ما جعل الكثير من رواد الشعر الجزائري الناهض يعتمدونها، مقتدين بمن يتلقون عنهم من الأساتذة والمشايخ الذين كان توجههم توجها سلفيا، وهذا قد أثر تأثيرا بالغا فيما يقرؤون وفيما

[1]- محمد ناصر، **الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية**، (1925-1975)، مرجع سابق، ص: 39.

يكتبون، ويظهر ذلك بوضوح عند الشعراء فإذا بهم« يصدرون عن هذه الثقافة العربية الأصيلة يبنون عليها رسالتهم الإصلاحية، ويقيمون عليها نهضة البلاد، وإذا بفكرة الإيحاء، والرجوع إلى الماضي تصبح عندهم النموذج الذي يجب أن يحتذى، والقبلة التي تجذب العقل والعاطفة معا»[1]. الأمر الذي دفع بالشعراء الإصلاحيين إلى العناية بالقرآن، نلمس أثر ذلك بصفة جلية في تكونهم الثقافي، وفيما يستعملونه من تعبير وتصوير. يوضح لنا ذلك ابن باديس في قوله:« إننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلّق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها»[2].

ب- التمسك بالأدب العربي القديم

إن حضور الأدب العربي القديم في الشعر الجزائري الناهض كان حضورا قويا، ساعده على النماء والثراء، وطبعه بطابع القوة والجزالة، وأشاع في تضاعيفه التعبيرات المستمدة منه، وهذا ما نلحظه عند أغلب الشعراء الإصلاحيين الذين يحملون لواء الشعر الناهض في الجزائر، وربما الشيء الذي دفعهم إلى التمسك بالأدب العربي القديم والعناية به سببان أساسيان:

1- العناية الكاملة بالتراث فقد كان رجال الإصلاح يهدفون إلى أن تكون النهضة الأدبية في الجزائر مبنية على أسس التراث العربي القديم الذي

[1]- محمد ناصر،المرجع نفسه، ص. 43.
[2]- الشهاب، العدد الخاص بالتفسير، ص. 167.

يعتبرونه الرافد القوي، والراعي الأمين للحفاظ على اللغة العربية؛ إذ يرون أن رقيها لا يكون إلا بالتمسك بروائع الشعر العربي القديم.

2- إن ولاء شعراء الحركة الإصلاحية للثقافة العربية وحدها دون التفتح على الآداب الأجنبية جعل نتاجهم الشعري يتأثر إلى أبعد حد بالمصدر الذي كانوا يستقون منه. علما بأن معظمهم تخرجوا في جامع الزيتونة، ولم يحتكوا بالثقافة الفرنسية.«لأن فرنسا في نظر نقاد المغرب العربي وأدبائه التقليديين دولة استعمارية وهذا ما يفسر قيام بعض هؤلاء بردود فعل قوية ضد ما أسموه (احتكاك اللغة العربية باللغة الأجنبية)»[1].

ج-التأثر بمدرسة الإحياء العربية

كان لمدرسة الإحياء العربية الأثر الكبير في انتشار الشعر الناهض في الجزائر، وذلك يعود إلى الموقف السلفي الواضح للحركة الإصلاحية إزاء قضايا الفكر والثقافة فإعجاب الحركة بأدباء النهضة العربية وشعرائها يمثل عنصر الإحياء عند الشعراء الجزائريين، كما يمثل القبلة التي تشد أنظارهم، والأنموذج الذي يحتذى به في استلهام ما يقولونه من شعر ناهض.فكان ابن باديس يطلب من طلابه النظم على منوال شعر شوقي شكلا ومضمونا، وقد نقل لنا هذه الحقيقة أحد تلامذته حيث يقول: «وكان الشيخ ابن باديس يختار لطلابه نماذج من شعر شوقي غالبا، ويطلب منهم الكتابة على منواله»،[2] وهذا ما يؤكد لدينا الإعجاب بشعراء مدرسة الإحياء.

---

[1]- ينظر، محمد مصايف، **النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي**، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979)، ص. 25.

[2]- محمد الهادي السنوسي الزاهري، **شعراء الجزائر في العصر الحاضر**، (تونس، 1927)، ص: 97.

والحق أن الشعراء الجزائريين في إعجابهم هذا « لم يكونوا بدعا من الشعراء أو الأدباء في الوطن العربي، فقد كان هؤلاء أيضا يتلقفون شعر شوقي وحافظ، والرصافي، لكون هذا الشعر يعالج في مضامينه واقعهم، ويلمس أذواقهم، ويثير مشاعر العروبة والإسلام فيهم»[1].

د- المفهوم التقليدي المحافظ للشعر

إن مفهوم الشعر عند الشعراء الإصلاحيين الجزائريين مرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم النقاد العرب القدامى، وهذا المفهوم عرفه النقد في المغرب العربي كله، يقول أحمد الأكحل في مفهوم الشعر بأنه« الكلام الموزون المقفى: السهل العبارات، ذو الخيال البديع، والاستعارات البليغة الفائقة، والمعاني الرقيقة الشائعة دون الغريبة، لأن البلاغة ما فهمته الخاصة والعامة»[2].

ففي هذه المحاولة لم يبتعد أحمد الأكحل عن المفهوم التقليدي المعروف، غير أننا نلحظ أن الشعراء الإصلاحيين لم يولوا اهتماما كبيرا لمفهوم الشعر بل اكتفوا بما جاء في مقولة النقاد القدامى دون مناقشتها، بينما نجدهم يولون اهتماما بالغا لمكانة الشعر ودوره في الحياة بمراعاة المقام ومقتضى الحال، مع الاعتراف بمهمة الشاعر ورسالية شعره، وفي نظرتهم هذه« لم يكرروا أقوال النقاد العرب القدامى، وإنما حاولوا أن ينظروا إلى هذا الجانب من زاوية واقعهم وظروفهم السياسية والاجتماعية ويستفيدوا من الشعر في سبيل نهضة البلاد ورقيها وإصلاحها، وهذا ما يفسر لنا إعطاءهم هذه

[1]- محمد ناصر، **الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية**، مرجع سابق ص. 61.
[2]- النجاح، ع 828.

القيمة للشعر دون سائر الفنون الأدبية الأخرى»[1].فانسياق شعراء الإصلاح وراء هذه النظرة جعل من شعرهم الناهض سلاحا يستخدم من أجل مواكبة قضايا الأمة وفي هذا يقول محمد العيد:« إن المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معينة ولذا جاءت أشعارنا توجيهية، تربوبية، اجتماعية... »[2].

3- نماذج تطبيقية من الشعر الناهض لمحمد الهادي السنوسي:

لا شك أن الشاعر محمد الهادي السنوسي، أحد رواد الشعر الجزائري الناهض، بل أول جامع له بين دفتي كتاب بعنوان (شعراء الجزائر في العصر الحاضر)، ويعد من الذين سخروا نتاجهم الشعري في خدمة قضايا الأمة المصيرية؛ لذا يكون حقا علينا متابعة بعض النماذج من شعره الناهض، نسوقها على سبيل التمثيل لا الحصر قصد الاستدلال بها في إنارة الدرب وإصلاح حياة المجتمع الجزائري، وهذا يؤكد لدينا مدى تعلق ومواكبة شعره الناهض لقضايا الأمة المختلفة. ذلك ما نقرأه في كثير من قصائده الشعرية من مثل قصيدة (ثورة التاريخ والمجد) منها قوله:[3]

قـــر الاستعمار فينا حقبة وهــو ما تعــرف شـــر وبلاء
وصـــبرنا ثم ثرنــا ثـــورة فــظـــهرنا وتـــوارى العظمــاء
وانتزعنا حقـــنا من يدهــم وطوينـــــاهم كما يطوى الرداء
ثورة التاريـــخ والمجد معا قد تبنـــت كل من فيها السماء
وتبنـــتها شعـــوب حــرة مـــن بني الضـــاد أبـاة أوفياء

---

[1]- محمد ناصر، مرجع سابق، ص. 69.
[2]- الشعب الأسبوعي، ع (1976/10/28)، ص. 6.
[3]-عبد الحميد غنام، **محمد الهادي السنوسي الزاهري**،(الجزائر: منشورات السائحي،2007)، ص: 367.

صـــمـموا أن لا يناموا وعلى أرضهم من دول الحلف اعتداء
فـــــإذا الـــمـوطن حر وإذا أرضـــــــه حمراء غطتها الدماء

من الواضح أن وجود الاحتلال الفرنسي وبسط نفوذه الضاغط على الشعب الجزائري لفترة زمنية طويلة أدى إلى خنق حريته وحرمانه من حقوقه والنظر إليه بأنه« شعب من الدرجة الثانية أو الثالثة، لا يستحق الاحترام والتقدير ولا يستأهل العناية والمساعدة والتطور»[1]، مما أوقعه في أتون مكائد الإدارة الاستعمارية فعمت بذلك البلوى في مختلف جوانب حياته، لكن كل تلك العوائق والهزات العنيفة قابلها الشعب الجزائري بالصبر والثبات إلى أن جاء اليوم الموعود فانتفض وثار ثورة مكنته من الوصول إلى الحقيقة الكاملة في الحياة؛ وهي أن يحيا الإنسان حرا كريما، أو يموت حرا كريما في سبيل استرجاع سيادته وانتزاع حقه من عدوه بمقاومته، وتمريغ أنفه، وإرغامه على الاعتراف بحريته وكرامته.

فنيل الاستقلال لم يكن منحة منحها الاستعمار الفرنسي للشعب الجزائري، وإنما جاء التتويج بالرجوع إلى دين الله لأنه الباعث القوي في إعلان الثورة المجيدة التي كان شعارها (الله أكبر، الجهاد في سبيل الله) بذلك لقيت قبولا واستحسانا من قبل الأحرار الذين عزموا العقد أن لا يغمض لهم جفن حتى يدحروا العدو مهما كانت قوته، وقد تحقق ذلك واسترجعوا كرامتهم، وتحرر الوطن المضرج بدمائهم الزكية. ذلك ما دل عليه قول الشاعر وهو ينقل لنا صورة واضحة عن واقع المجتمع الجزائري الذي تعرض لأبشع صور الاحتلال، إلا أنه تمكن من التخلص منه، وفي هذا دلالة

[1]- يحي بوعزيز، **ثورة 1871، دور عائلتي المقراني والحداد**، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)، ص: 35- 36.

معبرة عن مدى تفاعل الشاعر وارتباطه بقومه في مواكبة قضاياه، وذلك من مقاصد الشعر الناهض لدى رواد الشعر الجزائري الحديث.

ومن القضايا التي عبر عنها أيضا الشاعر(محمد الهادي السنوسي) في شعره الناهض: قضية الإسلام في الجزائر، وذلك من خلال قصيدة له بعنوان (تحية رمضان) منها قوله:[1]

نحن في هذه الجزائر بالإسلام سدنـــا لا بالفضول المعيـــــب
وبه استصعب المغيرون فيـــنا قـــوة الروح في مجال الحروب
فإذا كبر المكبر منا أرجـــــفنا قوة العـــــــدو الكـــــــذوب

المتفق عليه أن الجزائر قبل مجئ الإسلام قد تعرضت لهزات عنيفة كانت السبب في عدم استقرارها، ولما جاء المسلمون فاتحين ومعهم دستور محكم «لا يخرجون في أحكامهم عنه، هو كتاب الله، وأتوا بقاعدة جديدة هي من أسلم فقد أصبح منا له مالنا وعليه ما علينا»[2] سرعان ما انتهى التصادم وأسلم السكان وحسن إسلامهم وظلوا مدة طويلة من الزمن متمسكين بإسلامهم إلى غداة الهجوم الفرنسي سنة 1830م الذي سلب الشعب الجزائري حريته واستولى على بلاده واحتلها احتلالا سياسيا وصليبيا أيضا؛ إذ يعد استهداف الدين الإسلامي في نظر المحتل القضية الأساسية لاستقرار الأوضاع، مما سجل جوا اجتماعيا مضطربا ومصائب نكب بها الشعب الجزائري لكن،« لم تزعزع إيمانه ولم يستول عليه اليأس أو الضعف، بل كان يعتقد أنه إنما يقاسي محنة عارضة فلا بد أن يسترجع يوما ما ضاع من شرف،

[1]- عبد الحميد غنام، **محمد الهادي السنوسي الزاهري، حياته وشعره،** (مرجع سابق)، ص: 394.
[2]- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م)، ص: 77.

وسيحيا في أرضه سعيدا»[1]، وذلك بفضل تمسكه بإسلامه الذي اختاره اختيارا حرا في أن يسوس البلاد دون غيره من الآراء أو الأفكار الأخرى، مما أثر إيجابا في حياته ويظهر ذلك في قوة تماسك شبكة علاقته الاجتماعية، بحيث لا يتفكك إزاء الأحداث والأهوال التي يتعرض لها، بل أصبح يرفع صوته مدويا عاليا في وجه عدوه لا يهابه، وفي هذا دلالة على عمق إيمانه وقوة تمسكه بالإسلام الذي رفع من قيمته وحرره من كيد الاحتلال.

وهنا يمكننا القول أن الشاعر قد استطاع من خلال خطابه الشعري الناهض أن ينقل لنا صورة واضحة عن حياة الشعب الجزائري، وهو مطلب أساس يعبر عن عمق العلاقة الجادة بين الشاعر ومجتمعه، ما يدل على انتمائه وارتباطه به جذريا، والتزامه بأداء رسالته وفق أهدافه التي لا يسمح لنفسه أبدا أن تحيد عنها، بل يشارك قومه فيما يعانون من آلام وما يبنون من آمال وهذه غاية الشعر الناهض. أما الحديث عن قضية اللغة العربية فقد تناولها الشاعر(محمد الهادي السنوسي) في شعره الناهض في أكثر من قصيدة، وذلك لأهميتها، وقد اخترنا منها قصيدة بعنوان(موطني بالضاد عزت أرضه) منها قوله[2]:

لغة الشعب هي الأصلفمـــــن لم يصنها لم يكن ذا نسب
وهي في الأحساب من أشرفها لم يكن من عقها ذا حسب
لغة الشعـــب هي الرأس فـــــإن هي زالت لم يعش بالذنـــب
هذه الأرض –وفيــها مجدها- تتـــــأذى بفم لـــــم يعــرب

---

[1]- محمد الطمار، **تاريخ الأدب الجزائري**، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981)، ص: 327.

[2]- عبد الحميد غنام، **محمد الهادي السنوسي الزاهري، حياته وشعره**، مرجع سابق، ص. 382.

كل شعب حاد عن منطـــــــقه عـــاش في ركن هــوان خــرب
وقضى مستعمرا في عقـــــــلـه بعـــدو فيـــه لم ينســـــحب

انتهج الاحتلال الفرنسي حيال التعليم باللغة العربية منهجا عمل بمقتضاه على تقليصه وتجفيف منابعه« ومع مرور الأيام قطعه بالمرة وأبقى على التعليم بلغته وحدها، ففرنس ألسنة وعقول من هم في ركابه، وعمل على تجهيل وحرمان السواد الأعظم من أبناء الشعب الجزائري من التعليم من مدارسه النظامية»[1].

ففي هذه الظروف الضاغطة والقوانين الخانقة فإن ما بقي من التعليم باللغة العربية في الجزائر« لا يناسب بالمرة درجة تقدمها المادي ولا يفي أصلا بحاجتها أو ببعض حاجتها»[2]، ورغم ذلك فإن النشاط التعليمي الوطني قد استمر ضمن حدود التعليم القرآني وفقا للطريقة المتبعة عند الأسلاف؛ إذ كانت السبيل الوحيد للحفاظ على اللغة العربية أمام خطر الهجمة الشرسة لفرنسة المجتمع، وبذلك حافظت اللغة العربية على مكانتها. وهذا ما نستشفه من خلال الأبيات الشعرية الأنفة الذكر؛ إذ يحدثنا الشاعر عن قيمة اللغة العربية فهي تعد الأصل في الشعب الجزائري فإن أهملها أو ضيعها بقي بلا نسب ولا حسب، كما تعد الأساس للمجتمع فهي بمثابة الروح للجسد لا يتسنى له العيش بدونها، فالتفريط في اللغة يورث الهوان والتبعية للآخر؛ لذا حذر الشاعر من مغبة ذلك وفي هذا دلالة على رسالة شعره الناهض بحيث جعله في خدمة أمته ومواكبة قضاياها المختلفة. ومن القضايا التي أثارها

[1]- عبد الحميد غنام، المرجع نفسه، ص. 28.
[2]- أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، مرجع سابق، ص. 253.

الشاعر أيضا قضية الانحراف العقدي الذي أصيبت به الأمة، يقول في قصيدة له بعنوان (مولد محمد) منها قوله:[1]

أردنا لهم آي الكتاب شريعة فهاج طغام، لا تروق لهم كتب
وأوردهم ورد الخرافات غيلة لأفكارهم، كي يسهل الدجل والسلب
وكنا ظننّاهم هداة، فأسفرت تجاربنا عنهم، فأهداهم ذئب
لقد أرهقوا عزمنا وعقولنا وهذا وإن طال المطال لهم دأب
يجنّون في قتل العباد، وإن هموا دعوا أن يجدوا في حياتهم، يأبوا
ينال ابن آوى عندهم كل حظوة وللمصلح الهادي الشتائم والسب

عندما استقر الاحتلال الفرنسي في الجزائر انحازت إليه بعض الطرق الصوفية – وبخاصة بعد مضي مؤسسيها الأولين- وتحولت إلى طرق« اعتمدت أدعية وصلوات خاصة أصبح لها مع مرور الزمن قيمة توازي في نظر المريدين تلاوة القرآن الكريم، بل وتزيد عليها وعلى بعض أركان الإسلام»[2] وقد أدرك الاحتلال هذه الحقيقة فجعل يستميل إليه مشايخ الطرق مغذيا فيهم روح الانحراف العقدي وذلك بإغداق الأموال عليهم وتشجيعهم على إقامة الولائم وحلق الذكر التي صورها على أنها الوجه الحقيقي للإسلام، وأن رجال الطرق هم حماته، كما شجع جموع الناس على البدع والتعلق بهؤلاء المشايخ، فانتشرت في صفوفهم أفكار الشرك بالله والتواكل، وبالتالي كانت النتيجة سقوط الأمة في شراك الفساد العقدي، وهذا ما أشار إليه الشاعر (محمد الهادي السنوسي) في قوله محاولا نقل صورة حقيقية عن الفساد العقدي الذي أصيب به جموع من الشعب الجزائري، وكيف كان موقف هذه الجموع

---

[1]- عبد الحميد غنام، **محمد الهادي السنوسي الزاهري**، مرجع سابق، ص. 377.
[2]- أحمد الخطيب، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985)، ص. 59-60.

من رجال الإصلاح الذين أرادوا لهم الخير والصلاح فأرشدوهم إلى كتاب الله والاحتكام إلى شرعه، لكن قوبلوا بالرفض والإعراض وبخاصة من قبل مشايخهم الذين أوردوهم موارد الهلاك وأوقعوهم في حبائل الانحراف والخرافات لكي يسهل عليهم استغلالهم وسلب أموالهم، وهذا حال كل من أعمته مصالحه الشخصية وانتصر لأناه. فقد أثبتت التجارب أن هذا النوع من الأشخاص لا يولون أي اهتمام لنصح أو إرشاد، بل يحاولون قطع الطريق أمام كل من يعترض سبيلهم باللجوء إلى الكيد والسب والشتم، فهم مستعدون من أجل المحافظة على مكاسبهم أن يوقعوا بكل من يعارضهم؛ لذا تراهم يجنّون في إبعاد الناس عن جادة الصواب، ويقربون كل من يستجيب لهم، وإن هم دعوا إلى الخير والصلاح ثاروا وأعرضوا...

فالشاعر هنا أحس بمسؤوليته تجاه مجتمعه فتحرك بمنهجية محكمة من أجل التغيير، وقام بدور فاعل وبروح صادقة في التعبير عن مشاعره مسخرا نتاجه الشعري في سبيل ذلك، وهذا يدل على مواكبة شعره الناهض لقضايا أمته؛ إذ يعد ذلك مطلبا ملحا في التواصل التفاعلي بين الشعر والمجتمع.

وهذه قضية أخرى لا تقل أهمية عن باقي القضايا التي أثارها الشاعر في أكثر من مناسبة، وهي قضية الحث على طلب العلم يقول في قصيدة بعنوان(نادي الترقي بالعاصمة) منها قوله:[1]

العلم يا قومـــــي فإن سبيلـــه للمهتدى أهـــدى لكل رشـــــاد
ضمـــــوا صفوفكم ووجـــهوا لرعاية الطلاب خيــر قـــــواد
فالعلم أصبح درسه في أمـــة تبغي النهوض ضرورة المعتاد

[1]- عبد الحميد غنام، **محمد الهادي السنوسي الزاهري**، مرجع سابق، ص. 433.

إن الذي سلب العزيز عزيــزه جهل أضـــــر بفكـــــره الوقـاد
ورمى البلاد بأسهم مسمومــة في المدعين تخـــــاذل الأفراد
يا قوم عصركم أقر بــما لـــه من مدفع داو ومن منطـــــــاد
اغدو على تلك السبيل فإنها والله لا يشقى عليها الغـــــادي

من المؤكد أن التعلم في أي أمة من الأمم يعد عنصرا هاما في بناء كيانها ومظهرا من مظاهر تحضرها. فهو يقوى ويزدهر بتوافر دواعيه، ويضعف وينحسر تبعا لقلة تلك الدوافع وفتورها. فالتعلم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كان على عكس«الاعتقاد السائد من أن الشعب الجزائري غير متعلم وأن الاستعمار وفر له التعليم»،[1] وهذه الحقيقة أثبتها الباحثون والمؤرخون الذين اهتموا بمرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر وبخاصة الفرنسيين منهم: إذ يجمعون على أن الثقافة العربية في الجزائر قبل الاحتلال كانت مزدهرة وأن معظم السكان كانوا متعلمين، أما بعد الاحتلال فقد تراجع التعليم باللغة العربية تراجعا فضيعا، وهذا أمر طبيعي في نظر الاحتلال الفرنسي قصد تحقيق ما يصبوا إليه، فهو يدرك أن العلم إذا تزود به الجزائري أمكنه مقاومته، فسعى حينئذ في تجهيل الأمة وما هي إلا فترة حتى أصبحت البلاد فارغة من العلم.

ولكن رغم تلك الضغوط والقوانين الخانقة لإرادة الشعب، إلا أن النشاط التعليمي باللغة العربية في الجزائر بقي في حدود التعليم القرآني، وهذا لا يفي بالغرض المطلوب، غير أن الشاعر (محمد الهادي السنوسي) لم يمنعه ذلك من الإلحاح في طلب العلم؛ لذا وجدناه يحث قومه على الاهتمام ورص الصفوف من

[1]- آندري بريتان، وآخران، **الجزائر بين الماضي والحاضر**، ترجمة اسطنبول رابح، ومنصف عاشور، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1984م)، ص: 211.

أجل التحصيل العلمي لأنه يهدي إلى سبيل الرشاد والنهوض بالأمة نحو الأفضل، كما نجده يحذر من الجهل والتخاذل لأن ذلك من دواعي الانحطاط الذي يخرب البلاد.

وفي قضية الاخلاص للوطن يقول من قصيدة له بعنوان (هي الجنة الفيحاء):[1]

وليس لنا إلا الجـــــزائر موطـــــن ترابك فيها واحــد وتـــــرابـــي

هي الأم واست في الصبا كل مرضع فلا بر من أبنائها المتصـــــاب

سأقضي لها حق الأمومـــــة إنـــها بلادي التي فيها محط ركابـــي

هي الجنة الفيحاء من قبل نشـــأتي وإن كنت ظلما نازلا ببيـــــاب

عروس تجلت في المحاسن حقبـــة إلى أن توارى حسنها الحجاب

المتأمل في قول الشاعر يلحظ ما تميز به من صدق فني، وتعبير صادق ينم عن مدى صدق مشاعره إزاء وطنه، فهو لا يختلف عن الرسام الذي لا ينجح إلا إذا تزود بطاقة حية من الشعور. فالشاعر هنا أجاد تصوير تلك العواطف التي تقوم في ميدان صدره الرحب معبرا عن خواطره الخاصة التي لا تكلف فيها ولا تعمل بارد أو كذب فادح، وهذه حقيقة أثبتها الشاعر من خلال شعره الناهض المواكب لقضايا الأمة، وليس أدل على ذلك من دعوته الصريحة لحب الجزائر والإخلاص لها، بل جعلها بمثابة الأم التي يجب أن تراعى كامل حقوقها، وهذا واجب رد الجميل من أبناء الأمة لوطنهم الذي ترعرعوا في أحضانه وتوسدوا ترابه، ذلك ما يستشف من خلال

[1]- عبد الحميد غنام، **محمد الهادي السنوسي الزاهري**، مرجع سابق، ص.373.

قول الشاعر الذي استطاع أن ينقلنا إلى عالمه المفعم بحب الجزائر، الأمر الذي يدل على تسجيل حضوره القوي ومواكبة قضايا أمته. من هنا ندرك أهمية الشعر في تحفيز الأمة والنهوض بها نحو المستقبل الواعد، وفي هذا دلالة واضحة على رسالية الخطاب الشعري والتزامه بقضايا الأمة، ذلك ما يلحظه كل قارئ لشعر (محمد الهادي السنوسي) الذي استطاع أن يسجل حضوره القوي في المجتمع الذي يعيش فيه بالتعبير عن قضاياه المختلفة. وأخيرا يمكن القول إن هذه الدراسة قد أفضت بحق إلى إعطائنا صورة واضحة عن الشعر الجزائري الناهض الذي حظي بمكانة مرموقة لدى رواده الذين جعلوه يساير واقعهم، وظروفهم السياسية والاجتماعية، واستفادوا منه في سبيل نهضة البلاد ورقيها وإصلاحها؛ وهذا ما يفسر لنا إعطاءهم هذه القيمة للشعر دون سائر الفنون الأدبية الأخرى. فانسياق رواد هذا الشعر وراء هذه النظرة جعل من شعرهم سلاحا يستخدم من أجل مواكبة قضايا الأمة؛ وهذا معناه أنهم يولون أهمية كبيرة لوظيفة الشعر ودوره ومكانته في الحياة والمجتمع، وقد جاء هذا اللون من الشعر ممثلا في أشعار(محمد الهادي السنوسي) أحد رواد الشعر الجزائري الحديث؛ إذ كانت غايته أن يشارك قومه آمالهم وما هزهم من أحداث ألمت بهم، ذلك ما يلحظه كل متتبع لشعره الناهض الذي عبر بدقة عما يحدث في الواقع المعيش، وفي هذا دلالة واضحة على مواكبته قضايا الأمة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- عبد الملك مرتاض، **فنون النثر الأدبي في الجزائر** (1931- 1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1983.

2- محمد ناصر، **الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية**(1925-1975)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ، سنة 1985.

3- الشهاب، ج9، م10،(أوت 1934).

4- صالح خرفي، **شعر المقاومة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع**، الجزائر، سنة 1979.

5- أبو القاسم سعد الله، **دراسات في الأدب الجزائري الحديث**، دار الآداب، بيروت، لبنان، سنة 1966.

6- أبو القاسم سعد الله، **محمد العيد آل خليفة**، دار المعارف، مصر، سنة 1975.

7- الشهاب، ج1، م05،(فيفري 1932).

8- الشهاب، العدد الخاص بالتفسير.

9- محمد مصايف، **النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1979.

10- محمد الهادي السنوسي الزاهري، **شعراء الجزائر في العصر الحاضر**، ج2، ، ط تونس، سنة 1927م.

11- النجاح، ع 828.

12- الشعب الأسبوعي، ع (1976/10/28م).

13- عبد الحميد غنام، **محمد الهادي السنوسي الزاهري، حياته وشعره**، منشورات السائحي، الجزائر، ط1، سنة 2007م.

14- يحي بوعزيز، ثورة 1871، **دور عائلتي المقراني والحداد**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

15- أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1984م.

16- محمد الطمار، **تاريخ الأدب الجزائري**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1981م.

17- أحمد الخطيب، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1985.

18- آندري بريغان، وآخران، **الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبول رابح**، ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1984.